ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٥﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٦﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٧﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٤٠﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤١﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

الصيحة: الصوتُ الشديد: الزجرُ؛ العذابُ؛ الإغارة (الأقرب).

غُثاء: الغُثَاءُ والغُثّاءُ: القَمَش (أي الشيء الرديء)؛ الزَّبَد؛ الهالك؛ البالي من ورق الشجر (الأقرب).

التفسير: أي أننا لم نُنْهِ النبوة بنوح، بل قد جاء بعده رسل آخرون، وجاءت بعد قومه أقوام أخرى ما زالت تعترض على رسلها كما اعترض عليه قومه. وعندما أمرهم رسولهم أن لا يعبدوا إلا الله قال رؤساء القوم الذين كانوا ينكرون الحياة بعد الموت وكانوا مصابين بالكبرياء بسبب مالهم وعزهم المادية، ألا ترون أنه بشر مثلكم، يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون؛ ولو اتبعتم شخصًا كهذا لكنتم من الخاسرين. إنه يقول إنكم لتعادون إلى الحياة بعد الممات، وهذا ما لا يقبله العقل. إنما نحيا في الدنيا ونموت فيها، وليس لنا أي حياة بعد الموت. إنه شخص مفتر، ولن نؤمن لقوله أبدًا. عندها دعا نبي الله نوح وقال ربِّ انصُرْني فإنهم قد كذّبوني. فأخبره الله تعالى أن هؤلاء سيصبحون عن قريب نادمين على ما فعلوا. فأخذهم العذاب فأصبحوا من الهالكين.

واعلم أن قول الله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ إشارة إلى قوم عاد الذين بُعث هود عليه السلام لهدايتهم. والدليل على ذلك هو أن الله تعالى قد ذكر هذا الشعب بعد هلاك قوم نوح عليه السلام، ويسجل الله تعالى في القرآن الكريم قول هود لقومه عاد: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾(الأعراف:٧٠)، كما قال تعالى ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾(الأعراف:٦٦). ثم كما أخبر الله تعالى هنا أن هذا الرسول دعا قومه إلى التوحيد ونهاهم عن عبادة الأوثان، يخبر في مكان آخر أن هودًا قال لقومه ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(هود: ٥١). ثم كما قال الله عن الشعب المذكور هنا ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كذلك قال هود لعاد وهو يدعوهم إلى الصلاح والتقوى ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:٧٠).. أي أنه تعالى قد جعلكم أكثر نفرًا وأقوى أجسامًا، فاذكروا نعمَ الله عليكم لتكونوا من المفلحين. ثم كما قال هؤلاء هنا

معترضين ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾، كذلك جاء عن قوم عاد أن هودًا قال لهم ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾(الأعراف:٧٠).

إذًا، فما دام القرآن الكريم يذكر أن عادًا جُعلوا خلفاء بعد هلاك قوم نوح، ثم يسجل هنا نفس الاعتراضات التي أثيرت من قِبلهم فقد ثبت أن المذكورين في قوله تعالى ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هم شعب عاد أنفسهم.

أما قوله تعالى ﴿مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.. فيبين لنا أن أكبر اعتراض يثيره المعارضون ضد الأنبياء دائمًا هو قولهم: لسنا جاهزين لاتباع بَشرٍ مثلنا. يجب أن يأتي لهدايتنا كائن يفوق البشر.

ويثار هذا الاعتراض من قبلهم لعدة أسباب. فيعترض بعضهم لأنه فريسة للتعصب والعناد، ولأن الكبر متمكن من زوايا قلبه الخفية، فيقول عن النبي: ما فضلُه علينا حتى يصبح مهبطًا لكلام الله تعالى؟ إن هو إلا بشر مثلنا. وإذا كان لا بد من نـــزول كلام الله تعالى لرقينا فكان الأولى أن ينـــزل علينا، لا عليه. كيف يحق لـــه، وهو بشر مثلنا، أن يتكبر علينا ويريد منا أن نتّبعه؟ إذًا، فإن هؤلاء القوم يسلّمون بإمكانية نـــزول وحي الله تعالى، ولكنهم يحتقرون الأنبياء ويزدرونهم، ظانين أنهم أفضل من أنبيائهم لما عندهم من مواهب مادية أو أموال وثروة أو علوم ظاهرة، فيرفضون الاستماع لرسالة أنبيائهم، ويقولون ما كان لنا أن نرضى بقولهم.

ومنهم من يثير هذا الطعن لأنه يرى أن الله تعالى قد خلق كل إنسان مكتملاً من حيث القوى الذهنية والمواهب العقلية، فلا حاجة به بعدها إلى أي مساعدة من الخارج لهدايته. إن أصحاب هذا التفكير يرون أن بوسع كل إنسان أن يختار بنفسه طريق النجاة ويميز بين الخير والشر، مستخدمًا ما عنده من مواهب وقدرات. إنه في غنى عن أن يخضع رأسه أمام بشر مثله، وأن يصدّق بكل ما يقول. وكأن هؤلاء القوم يرون أن اتباع المرء لبشر مثله يمثّل الإساءةَ إلى المواهب العالية التي قد زُوّد بها كل إنسان من قبل الطبيعة.

وهناك نوع آخر من هؤلاء الطاعنين، فهم يرون أن الكفاءات والقدرات التي تتطلبها النبوة لا تتوافر في أي من البشر. فإنهم جاهزون لاتباع كائن يفوق البشر في قواه وقدراته، ولكن من المحال أن يتبعوا بشرًا مثلهم محتاجًا إلى الحوائج البشرية، يأكل كما يأكلون ويشرب كما يشربون. إن هؤلاء القوم لا ينكرون نـــزول الوحي من عند الله تعالى، إلا أنهم ينتظرون كائنًا مزودًا بقدرات تفوق قدرات البشر، لذا فإنهم يرفضون أنبياءهم.

إذًا، فهذا الاعتراض يثار لعدة وجوه. بيد أن الله تعالى لم يزل يبعث الرسل من البشر دائمًا وأبدًا. ذلك لأن كل إنسان يكون بحاجة إلى القدوة والنموذج، ولو كان الأنبياء مزودين بكفاءات وقدرات تفوق قوى البشر لما كانوا أسوة للآخرين؛ إذ سيقول لهم الناس بكل بساطة إنما تعملون بهذه الأحكام الإلهية لأنكم قد أوتيتم قدرات غير عادية، ولو كانت لديكم قدرات كمثل قدراتنا لما عملتم بهذه الأحكام. ودفعًا لهذا الاعتراض لم يزل الله يبعث البشر أنفسهم رسلاً، ليكونوا نموذجًا للناس حتى لا يكون لهم عذر يوم القيامة، وحتى يقيم الله عليهم الحجة قائلا لهم ما دام هؤلاء الذين كانوا بشرًا مثلكم قد عملوا بوصاياي واتبعوا هداي، فكيف يحق لكم أن تقولوا الآن أن العمل بتلك الوصايا والأحكام كان أمرًا مستحيلاً علينا. كلا، بل إنه عذر عار عن الصحة، وإنه خليق بكم أن تعاقَبوا.

إذًا، فلا بد للناس من أن يأتيهم رسولٌ بشرٌ مثلهم دائمًا، ولكن المؤسف أن الإنسان يبحث دائمًا عن الأعذار التافهة، ويخالف أحكام الله تعالى بشتى الحيل والحجج.

أما قولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ فقد بين الله فيه السبب الثاني لإنكارهم للأنبياء، وهو أنهم يكونون منكرين للبعث بعد الموت، مما يحرمهم من الإحساس السليم بما يأتونه من أعمال سيئة أو خيرة. فلا يزالون سائرين على دربهم مغمضي العين، ظانين أنه ليس لهم في الدنيا إلا أن يأكلوا ويشربوا ويتمتعوا بملذات الحياة التي هي أيام معدودات، لذا فإن هؤلاء يصابون بهزة عنيفة حين يأتيهم رسلهم برسالة الله تعالى ليحدثوا في عقائدهم وأعمالهم

انقلابًا عظيمًا، فيردّون على الأنبياء بقولهم: إنكم تخوّفوننا من عذاب الله عبثًا، فإننا ننكر البعث بعد الموت أصلاً، فلا نخاف أي حساب. إنما نعمل من أجل هذه الحياة التي هي أيام معدودات، وإننا نعلم جيدًا ما هو خير لنا وما هو ضار بنا، فلا تخوّفونا من عذاب الآخرة.

الحق أن الإيمان بالبعث بعد الموت هو الذي يخلق في المرء خشية الله ومحبته ﷻ، وهو أهم وسيلة لإصلاح الإنسان. ولولا الإيمان بالبعث بعد الموت لوجب التسليم بعبثية خلق العالم كله، وليس ذلك فحسب، بل لا بد من الاعتراف بأن محاولة الترقي في الخير والصلاح عبث ولغو كليةً. إنه لمن غير المعقول أن يخلق الله تعالى السماوات والأرض وما بينهما من شمس وقمر وكواكب ونجوم وغيرها من ملايين الأشياء، ويودعها من الأسرار ما لا يعد ولا يحصى، ثم يخلق فيها الإنسان ليفنى للأبد بعد أن يقضي فيها سنوات من حياته التي ليست لها غاية عظمى. إنها فكرة يرفضها العقل السليم. إن إيجاد الله هذا الكونَ الشاسع، ثم جَعْلَه الإنسانَ حاكمًا عليه بسبب عقله ليشكّل دليلاً على أن هناك غاية أخرى للإنسان علاوة على حياته المحدودة. ويعلن الإسلام أن تلك الغاية إنما هي أنه قد خُلق لحياة أبدية، وقد فُتح لـــه باب الترقيات الروحانية الخالدة. إذًا، فلا يعني موت الإنسان إلا انفصال روحه عن جسده المادي، إذ لا فناء لروحه، بل إنها تظل حية على الدوام، ولا تزال في الصعود في مراتب قرب الله تعالى التي لا نهاية لها.

قصارى القول إن إنكار البعث بعد الموت هو من أكبر دواعي إنكار الأنبياء، وهذا ما أشير إليه في هذه الآيات، حيث بين الله تعالى أن المعارضين كفروا برسولنا واستهزءوا به، فأناب إلينا ودعانا واستعان بنا، فأوحينا إليه أنهم هالكون عن قريب بعذابنا. فجاءهم العذاب وجعلناهم حطامًا. وقد أوضح القرآن الكريم هذا الأمر في مكان آخر فقال ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (الحاقة:٧و٨).

ومن أكبر الدلائل على صدق قول الله تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ وبالتالي على صدق القرآن الكريم أن بعض المحققين الأوروبيين لا يسلّمون بوجود قوم باسم عاد أصلاً.

(Encyclopedia of Islam Vol.1 p.169)

وذلك برغم أن قبيلة باسم "عاد" مذكورةٌ حتى في بعض كتب الجغرافيا اليونانية القديمة (العرب قبل الإسلام، الجزء الأول: "عاد" ص ٦٢). فبما أن الله تعالى قد جعل عادًا بعذابه غثاءً وحطامًا، فصار من الصعب على بعض الباحثين الأوروبيين التسليم بوجود قوم باسم عاد أصلا.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٣﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٧﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٨﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٠﴾

التفسير: يخبرنا الله تعالى هنا أنه قد جاءت أمم أخرى بعد شعب عاد – مثل قوم ثمود الذين قد سماهم القرآن الكريم خلفاء لعاد (الأعراف:٧٥) – وأرسل الله

تعالى فيهم رسولاً تلو رسول، وكلما جاء قومًا رسول رفضوه، فأهلكنا قومًا بعد قوم.

وهناك اختلاف كبير بين التوراة والقرآن بهذا الصدد، ولكن الشواهد التاريخية تؤكد صحة بيان القرآن وخطأ التوراة. تقول التوراة أنه لما جاء العذاب في زمن نوح وهلك أهل زمنه، تأسف الله على فعله ووعد أنه لن ينـــزل بعد ذلك عذابًا مثله أبدًا؛ حيث جاء فيها: "وقال الربُّ في قلبه لا أعود ألعَنُ الأرضَ أيضًا من أجل الإنسان لأن تصوُّر قلب الإنسان شريرٌ منذ حداثته" (التكوين ٨: ٢١).

ولكن التوراة نفسها تخبرنا في مكان آخر: "فأمطرَ الربُّ على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب من السماء، وقلَب تلك المدنَ وكلَّ الدائرة وجميع سكّان المدن ونباتَ الأرض". (التكوين ١٩: ٢٤-٢٥)

وهذا يعني أنه بحسب التوراة قد نقض الله بنفسه العهدَ الذي قطعه على نفسه حيث دمر سدوم بعذاب النار والكبريت.

كما تخبر التوراة أنه في زمن موسى عليه السلام أيضًا قد حل العذاب بفرعون صنوفًا وألوانًا. فذات مرة "تَحوّلَ كلُّ الماء الذي في النهر دمًا، ومات السمكُ الذي في النهر، وأنتنَ النهرُ" (الخروج ٧: ٢٠-٢١). وفي مرة أخرى عذبهم الله بكثرة الضفادع التي غطَّت أرضَ مصر كلها (الخروج ٨: ١-٧). وتارة عذّبهم بكثرة القمل حتى تقول التوراة إن "كلّ تراب مصر صار بعوضًا* في جميع أرض مصر." (الخروج ٨: ١٦-١٧)

وفي إحدى المرات دعا عليهم موسى عليه السلام "فدخلتْ ذُبّانٌ** كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده، وفي كل أرض مصر خربت الأرضُ من الذبان" (الخروج ٨: ٢٤). وذات مرة "ماتت جميعُ مواشي المصريين". (الخروج ٩: ٥-٦). وفي إحدى

* ورد في الطبعة الأردية للتوراة "القمل" بدلاً من البعوض. *(المترجم)*

** ورد في الطبعة الأردية للتوراة "البعوض" بدلاً من الذبان. *(المترجم)*

المرات عذّبهم الله تعالى بالبثور، فطلعت البثور والدمامل في المصريين وبهائمهم (الخروج ٩: ٨-١١).

ومرة نـــزل على المصريين عذاب البرَد "فكان برَدٌ ونارٌ متواصلةٌ في وسط البرَد. شيءٌ عظيمٌ جدًّا لم يكن مثلُه في كل أرض مصر منذ صارت أُمّةً" (الخروج ٩: ٢٢- ٢٤).

وفي إحدى المرات عذبهم الله تعالى بكثرة الجراد حتى قيل "لم يكن قبله جرادٌ مثله ولا يكون بعده كذلك. وغطّى وجهَ كل الأرض حتى أظلمت الأرضُ، وأكلَ جميع عُشْبِ الأرض وجميعَ ثمرِ الشجر الذي ترَكه البرَدُ" (الخروج ١٠: ١٢-١٥).

ولكن الثابت جغرافيًّا، وخلافًا لما تقول التوراة هنا، أن مصر هي من البلاد التي يتكاثر فيها الجراد على وجه الخصوص.

(The Book of Knowledge, Vol.5 P.33-34:"locust")

كما غطّت ظلمةٌ أرضَ مصر عذابًا لأهلها حيث ورد:

"فكان ظلامٌ دامسٌ في كل أرض مصر ثلاثة أيام، لم يُبصِرْ أحدٌ أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام." (الخروج ١٠: ٢٢-٢٣)

كذلك قد أهلك الله تعالى كلَّ بِكرٍ من أولادهم، فكان صراخ وعويل في كل مكان، حيث تقول التوراة: "فحدَث في نصف الليل أن الرب ضرَب كلَّ بِكْرٍ في أرض مصر من بِكر فرعونَ الجالسِ على كرسيه إلى بِكرِ الأسيرِ الذي في السجن، وكلَّ بِكرِ بهيمة. فقام فرعونُ ليلاً هو وكلُّ عبيده وجميعُ المصريين، وكان صراخ عظيم في مصر، لأنه لم يكن بيتٌ ليس فيه مَيتٌ." (الخروج ١٢: ٢٩-٣٠)

فلو كان ما تقوله التوراة صحيحًا بأن الله تعالى عهد عند هلاك قوم نوح بأن لا يُهلك الناس بعذابه بعد ذلك "لأن تصوُّر قلب الإنسان شريرٌ منذ حداثته"، فلِمَ أهلك سدوم بمطر من النار والكبريت؟ ولِمَ عذّب الفرعونيين بالقمل والضفادع والبعوض والجراد؟ ولِمَ صبَّ عليهم البرَد والنار؟ ولِمَ حوّلَ لهم ماء النهر دمًا؟ ولِمَ قتَل البِكرَ من أولادهم؟ ولِمَ أخرج الدمامل والبثور في أجسامهم؟ ثم لِمَ ترَكهم في

ظلمة دامسة ثلاثة أيام؟ وإذا كان الله تعالى قد قرر عدم عذاب أحد بعد نوح عليه السلام فلماذا قال على لسان موسى عليه السلام "الرب إلهك هو نارٌ آكلةٌ" (التثنية ٤: ٢٤).

وإذا صح قوله تعالى "لا أعود ألعَنُ الأرضَ أيضًا من أجل الإنسان" فلماذا قال لبني إسرائيل: إذا لم تعمل بوصاياي "ملعونًا تكون في المدينة، وملعونًا تكون في الحقل. ملعونةً تكون سَلّتُك ومعجَنُك. ملعونةً تكون ثمرةُ بطنك وثمرةُ أرضك.. نتاجُ بقرِك وإناثُ غنمك. ملعونًا تكون في دخولك، وملعونًا تكون في خروجك. يرسل الربُّ عليك اللعنَ والاضطرابَ والزجرَ في كل ما تمتدّ إليه يدُك لتعمَله حتى تهلَك وتفنى سريعًا." (التثنية ٢٨: ١٥-٢٠)

إذًا، فقد ثبت بطلان ما أعلنته التوراة بشهادتها هي. أما القرآن الكريم فيخبرنا بمجيء الرسل بعد نوح على التوالي، وأن أعداءهم قد دُمروا بسبب عصيانهم، حتى بُعث موسى في الأخير فهلك أعداؤه أيضًا. ويخبرنا التاريخ أن بيان القرآن الكريم هو الصحيح.. أي أن أمما كثيرة بعد نوح عليه السلام قد هلكت على التوالي بعذاب الله تعالى. إذًا، فمن الباطل تمامًا ما تزعم التوراة بأن الله تعالى تندَّم بعد إهلاك قوم نوح بعذابه، فوعد بعدم إنـــزال عذاب مثله في المستقبل. فلو كان وعده تعالى حقًّا وصدقًا فلِمَ أنـــزل العذاب بعد ذلك في شتى العصور، ولماذا أهلك الناس وأبادهم؟

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

شرح الكلمات:

آوى: آويتُه: أنـــزلته، ومنه "اللهم آوِني إلى ظلِّ كرمك وعفوك" (الأقرب). أَوَى منـــزلَه وأَوَى إلى منـــزله: نـــزل به ليلاً أو نهارًا (الأقرب).

ربوة: الربوة: الرابية وهي ما ارتفع من الأرض (الأقرب).

قرار: قرَّ في المكان: ثبَت وسكَن. والقرار: ما قُرَّ فيه؛ المستقرُّ (الأقرب).

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا عيسى عليه السلام وأمه مريم الصديقة، وأخبر أنه لما أوذي عيسى أذى شديدًا أعانه الله على عدوه وجعله آيةً دالةً على قوته وقدرته ﷻ. ثم إن الله تعالى نجّاهما من عذاب العدو، وأسكنهما في أرض مرتفعة طيبة المسكن ذات ينابيع.

واعلم أن فعل "آوى" يعني في العربية دائمًا أنقَذَه من المصيبة والأذى منّةً عليه وإحسانًا. ومثال ذلك في القرآن الكريم قول الله تعالى لنبينا ﷺ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾(الضحى: ٧).. أي لقد مات أبوك وصرتَ يتيمًا وأنت لا تزال في رحم أمك، فتكفَّلَك الله وربّاك، وأظلّك في كنفه.

كذلك ورد في مكان آخر قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(الأنفال:٢٧). فقد استخدم الله تعالى هنا أيضًا لفظ ﴿فَآوَاكُمْ﴾ حين وجد المسلمين في محنة كبيرة وأذى شديد، فهيأ لهم الأمن في المدينة المنورة وأيدهم بنصره.

كذلك يخبرنا القرآن الكريم أن نوحًا عليه السلام لما قال لابنه ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ قال له ابنه ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾(هود:٤٤).. أي سألوذ بجبل يحميني من الطوفان.

كما يقول القرآن الكريم عن يوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(يوسف:٧٠).. أي لما وصل إخوة يوسف إليه هيّأ لأخيه بنيامين الملاذ وقال لـــه إني أخوك، فلا تحزن الآن بمعاملتهم السيئة. فترى أن لفظ ﴿آوَى﴾ قد ورد هنا أيضًا بالمعنى المشار إليه، وهو أن أخا يوسف كان يعاني عناء شديدًا بسبب غياب أخيه وسوء معاملة إخوته الآخرين، فأنـــزله يوسف عنده منـــزلاً كريمًا، وهدّأ من روعه قائلاً: إني أنا أخوك. وهكذا زال عن أخيه الهمّ، وهدأ باله وارتاح.

وهذا المعنى ثابت من القواميس أيضًا، فيقال أوَى إلى منـــزله أي دخله وارتاح. ومنه الدعاء "اللهم آوِني إلى ظلِّ كرمك وعفوك" (الأقرب).

وعليه فإن الله تعالى قد بيّن بقوله ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أنه نجّى المسيح وأمه من محنة كبيرة، وهيأ لهما الملاذ في أرض مرتفعة تجري فيها عيون الماء.

وإذا فحصنا الأمر من الناحية التاريخية تبين لنا أن المسيح وأمه – عليهما السلام– لم يقع في حياتهما، قبل واقعة الصليب، أي حادث كان بمنـــزلة مصيبة كبيرة اضطر بسببها للبحث عن الملاذ. إنما هي واقعة الصليب التي أصابت المسيح وأمه الصديقة بغم شديد. وبما أن الله تعالى قد أنقذ المسيح من الموت على الصليب فكان لا بد لـــه من الهجرة من تلك الأرض إلى بلد آخر، لأن بلاد الشام كانت تحت حكم قيصر الرومي، وكان المسيح وأمه في عداد الخارجين على دولته، ولو أنهما ظلا في الشام لأُلقي القبض عليهما ثانية، ومن أجل ذلك أمر الله تعالى المسيح بالهجرة من تلك الأرض، ثم هيأ لهما بفضله ورحمته الملاذَ في بقعة من الأرض مرتفعة وبعيدة عن بطش الأعداء تجري فيها ينابيع الماء الطيب. وكما هو واضح من الشواهد التاريخية فإن هذا المكان هو منطقة كشمير حيث يسميها الناس جنة أرضية لما يوجد فيها من عيون ماء ومناطق خضراء نضرة ومناخ رائع. بل إن كلمة "كشمير" نفسها تدل على سفر المسيح عليه السلام إليها، حيث تدعى هذه المنطقة "كَشير" في اللغة الكشميرية. ولفظ "كشير" عبراني الأصل في الواقع، وهو في الأصل "كأشير" ومركب من كلمتين هما "ك" وهو حرف التشبيه، و"أشير" وهي بلاد الشام باللغة العبرانية، والمعنى بلد كبلاد الشام. ثم سقط الألف من كثرة الاستعمال، وبقي "كشير" الذي حولته الأمم الأجنبية إلى "كشمير" بمرور الزمان. ولكن الغريب أن كشمير لا تزال تُدعَى وتُكتَب "كشير" في اللغة الكشميرية. والكشميريون يسمون ساكن هذه المنطقة "كاشر"، بينما يسميه أهل البنجاب "كشميري".

ثم إن لفظ "كشمير" بحد ذاته يشكل دليلاً على أن العبرانيين قد عاشوا فعلاً في هذه المنطقة في عصر من العصور، بل الثابت من كتب التاريخ بكل جلاء أنه قد جاء نبيٌّ إسرائيلي إلى هذه المنطقة قبل ألفي عام، وكان يدعى النبي الأمير، وقبره موجود في حي "خانيار" * ومشهور بقبر "يوز آسف". وهذا اللفظ صيغة محوَّرة من "يسوع آصف" كما قد ذكر ذلك مؤسسُ الجماعة الإسلامية الأحمدية في كتبه. والآصف في العبرية شخص يبحث عن قومه.

أما "يوز" فهو صيغة محوَّرة من "يسوع". وهذا يعني أن المسيح عليه السلام قد سمي بذلك لأنه خرج إلى تلك المنطقة بحثًا عن القبائل الإسرائيلية العشر الضالة ليبلغهم رسالة الله. وهي تلك القبائل الإسرائيلية التي قد أسرها نبوخذنصر البابلي، وأجلاها وأسكنها في المناطق الشرقية أي أفغانستان وكشمير.

(History of Afghanistan, P.39 & The Races of Afghanistan Chapter 2, P.15& Afghanistan The Country & People, P.72-75)

وقد أشار المسيح عليه السلام نفسه إلى مهمته هذه ذات مرة حيث قال: "لم أُرسل إلا إلى خراف بيتِ إسرائيلَ الضالّة" (متى ١٥: ٢٤).

كذلك ورد في مكان آخر قول المسيح: "ولي خرافٌ أُخَرُ ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتيَ بتلك أيضًا، فتسمَع صوتي، وتكون رعيةٌ واحدة وراعٍ واحدٌ" (يوحنا ١٠: ١٦)

وفي مناسبة أخرى أوصى المسيح عليه السلام حواريه بصدد التبليغ فقال: "إلى طريق أممٍ لا تمضوا، وإلى مدينةٍ للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحريّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (متى ١٠: ٥-٦).

لقد تبين من هذه الفقرات أن المسيح عليه السلام كما قام بتبليغ رسالة الله ليهود فلسطين، كذلك كان من المفروض أن يبلغ دعوته إلى يهود البلاد الشرقية وأن يلبّوا دعوته، لأن الخراف الفلسطينية ما كانت لتصدّقه إلا قليلاً، أما الخراف الأخرى

* في مدينة سرينغر. *(المترجم)*

فكان من المقدر لها أن تلبي نداءه وتجتمع حوله بسرعة. ووفقًا لهذه الأنباء قد خلق الله تعالى في فلسطين من الظروف ما أدى إلى معارضة عامة ضد المسيح عليه السلام حتى إن الحكومة رفعت ضده قضية التمرد والعصيان، وحكمت بإعدامه. ولكن الله تعالى نجى المسيح عليه السلام من الموت على الصليب كما أنقذ "يونان" النبي من فم الموت. وبما أنه لم يكن بوسع المسيح عليه السلام أن يمكث في تلك البلاد بعد حادث الصليب، لأن الذي قد صدر الحكم بإعدامه من قبل الحكومة لو نجا من الإعدام فليس مآله إلا الإعدام ثانية، لذا فإن المسيح عليه السلام هاجر من تلك البلاد. وبرغم أن الطريق من فلسطين إلى أفغانستان وكشمير كان وعرًا ومخيفًا جدًّا، إلا أنه هاجر من هنالك إلى هذه المناطق. وكما يخبرنا القرآن الكريم فإن الله تعالى قد جعل أرض كشمير دار هجرته، وهي أرض ينطبق عليها تمامًا قول الله تعالى ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.. بمعنى أن المسيح عليه السلام قد أقام في تلك الأرض في أمن ودعة بدون أن يواجه أي معارضة، كما تجري في تلك الأرض عيون ماء معين، وليس هذا فحسب بل إن هذه المنطقة تشبه الشام في بردها وخضرتها ونضارتها. فلما وصل المسيح عليه السلام هذه المنطقة زالت همومه وانتهت مصائبه، فظل ينشر دعوته في ربوعها حتى بلغ المئة والعشرين (كنز العمال: كتاب الفضائل من قسم الأفعال، الباب الثاني في فضائل سائر الأنبياء، الفصل الأول، المعجم الكبير للطبراني الجزء الثاني والعشرون ص ٤١٧-٤١٨: ما روت عائشة أم المؤمنين عن فاطمة). وتوفي أخيرًا هنا، ودُفن في حي "خانيار" بمدينة "سرينغر"، حيث يوجد قبره حتى اليوم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٥﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٦﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٠﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦٢﴾

شرح الكلمات:

زُبُرًا: الزُبر جمع الزُبرة، وهي القطعة الضخمة (الأقرب).

غَمْرة: يقول الإمام الراغب في تفسير هذا اللفظ: "جُعِلَ مثلاً للجهالة التي تغمُر صاحبَها" (المفرادت).

التفسير: يجب أن لا ينخدعن أحد من هذه الآية فيظن أن هذا الكلام موجه إلى الأنبياء فحسب. فمن أساليب القرآن الكريم أنه يخاطب الأنبياء أحيانًا مع أن الكلام يكون موجهًا إلى أتباعهم. ومثاله قول الله تعالى لرسولنا الكريم ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾(الإسراء:٢٤). فالخطاب هنا موجه إلى النبي ﷺ في الظاهر، ولكنه موجه إلى أمته ﷺ في الحقيقة، إذ تُوفي أبوه قبل ولادته، كما لحقت أُمّه بربها قبل أن يبلغ سن البلوغ. وعليه فبرغم أن الخطاب هنا موجه إلى الرسل في الظاهر، ولكنه موجه إلى أتباعهم في الواقع، حيث أمرهم أن يأكلوا الحلال والطيب من الأشياء، لأن هذا سيساعدهم على القيام بالأعمال الصالحة.

والحق أن لطعام الإنسان تأثيرًا كبيرًا على أخلاقه، إذ تؤدي نوعية الغذاء إلى حدوث تغيرات جسمانية أو أخلاقية في الإنسان. وبما أن الإنسان بحاجة إلى إثارة كافة عواطفه وملكاته الطبيعية وتطويرها كي يستخدمها في محلها فيحظى بمرضاة الله تعالى، لذا فقد نهى القرآن الكريم عن تناول الأغذية التي تضر الإنسان ضررًا جسديًا أو أخلاقيًا أو روحانيا. فمثلا قد حرم الله تعالى المَيتة والدم ولحم الخنـــزير وما ذُكر عليه اسم غير الله تعالى. والواضح أنه ليس في هذه الأشياء ما هو خال من الأضرار الجسدية. خذوا الميتةَ مثلاً، فإنما يموت الحيوان إما إذا بلغ آخرَ حدٍّ من الكبر، أو إذا لدغه حيوان سام، أو بسبب مرض أو سُم. وفي كل هذه الحالات يصبح لحمه سامًّا وغير صالح للاستهلاك. أما إذا مات من جراء صدمة شديدة، كأن يسقط في بئر أو ينطحه حيوان آخر، ففي هذه الحالة أيضًا يتسمم دمه، وبالتالي يصير لحمه غير قابل للاستهلاك. أما الدم فهو الآخر يحتوي على سموم عديدة، وتناوله مدمر لصحة الإنسان طبيًّا. ونفس الحال للحم الخنـــزير، فأكله يسبب كثيرًا من الأمراض. كما أن في الخنـــزير عادات سيئة تنتقل إلى الذين يأكلون لحمه. أما ما ذُبح بغير اسم الله تعالى فإن أكله يجعل المرء عديم الغيرة لله تعالى، فيخلو قلبه من تعظيمه تعالى. ثم إن الإسلام حرم الخمر من بين المشروبات، لأنها تسكر وتُذْهِبُ عقل الإنسان وتضر بذكائه وعلمه.

إذًا، فتحريم جميع الأشياء التي حرمها الله تعالى إنما يرجع إلى ما فيها من أضرار جسدية أو أخلاقية أو روحانية. وإن الله تعالى إنما أحلّ لنا الأشياء التي تساعد على رقي الإنسان جسديًا وأخلاقيًا وروحانيا. ثم إنه تعالى قد حثّنا على تناول الطيبات مما أحلّ لنا.. أي الأشياء التي تتلاءم مع صحة الإنسان ومزاجه والتي لا تتضرر بأكلها صحته.

لقد تبين من هنا أن الإسلام يسلّم بتأثير الغذاء على أخلاق الإنسان، وأنه قد وضع للأكل والشرب قيودًا وشروطًا وفتح بذلك بابًا جديدًا لنا لإحراز الأخلاق الحميدة. إن الإسلام يعرض على الدنيا قاعدة تقول إنه لمن المحال أن تظل الروح الإنسانية في معزل عن تأثير التغيرات الجسدية، لذا فإنه تعالى قد وضع بعض القيود

بصدد غذائنا، لكيلا تصل التأثيرات السيئة إلى قلب المرء وعقله عبر معدته، فلا تصبح روحه كالميت. إنه يقول إنكم إذا أكلتم الحلال، بل الطيبَ من الحلال، وُفّقتم للقيام بصالح الأعمال حتمًا. ويماثل قوله هذا ما نراه اليوم عند دعاة الاشتراكية، فإنهم كلما وجدوا فرصة للكلام قالوا دَعُوا جميع القضايا جانبًا، فإن القضية الأساسية هي قضية البطن. والقرآن الكريم أيضًا يعلن أن القضية كلها تدور حول البطن. ولكن الفرق هو أن الاشتراكيين يقولون إن من ملأ بطنه فقد فاز، بينما يعلن القرآن الكريم أن من وقى بطنه من الأشياء النجسة بكل أنواعها فقد فاز ونجا. من فرّق بين الحلال والحرام وتناولَ الطيبات دائمًا، فهو الذي يوفَّق للعمل الصالح. وبتعبير آخر، إنما يوفَّق للصلاة من أكل الحلال، وإنما يوفَّق للصوم من تناول الحلال، وإنما يوفَّق للزكاة من أكل الحلال. إن الاشتراكية تقول: إن من ملأ بطوننا فهو زعيمنا ومخلّصنا، ولكن الله تعالى يعلن في القرآن الكريم أن من أكل في بطنه طعامًا حلالاً فهو عبدنا، وأن هذا سيفتح عليه أبواب الحسنات. فما لم ير المرء فيما إذا كسب رزقه بطريق حلال أم بطريق حرام فلن ينفعه قوله "لا إله إلا الله"، كما لن يرضى الله بانتمائه إلى أي فرقة من فرق الإسلام. إنما يرضى الله عنه إذا أكل في بطنه رزقًا حلالاً. أما إذا كسب المال بالغشّ والخداع، وملأ بطنه بطعام حرام، ثم ظن أنه سيقدر على عمل الصالحات، فظنه باطل تمامًا. أما إذا أكل الحلال قدر على فعل الصالحات أيضًا.. بمعنى أنه إذا أراد بعد ذلك أن يؤدي الصلاة بخشوع وخضوع فسيوفَّق لها، وإذا أراد أن يصوم صومَ رجلٍ تقي فسيتمكن من هذا، وإذا أراد أن يؤدي الزكاة بشروطها فسيستطيع ذلك. وليس أن هذه الأعمال الصالحة ستصدر عنه تلقائيًّا بعد أكل الحلال بدون أن يبذل المجهود، إذ لا يصدر أي عمل من تلقائه، وإنما ينفتح بذلك باب للقيام بالصالحات. إن هذا لا يعني أبدًا أن أحد الهندوس مثلاً إذا أكل الحلال بدأ في أداء الصلاة، أو أن أحد السيخ إذا تناول الرزق الحلال أخذ في ذكر الله تعالى. كلا، بل المراد أن أكل الحلال يمهد للمرء القيام بهذه الحسنات، وأنه لو أراد حقًّا أن يصلي أو يصوم أو يذكر الله تعالى، فسوف يوفق لهذه الحسنات. أما إذا كان يأمل أنه سيتمكن من القيام بهذه

الحسنات بدون رعاية شرط أكل الحلال فلن يتحقق أمله هذا أبدًا. يسأل الناس عادة ما السبيل إلى حب الله تعالى، وما الطريق للتقدم في الحسنات، وكيف يمكن تجنب الذنوب والسيئات، وكيف نفوز في غاياتنا؟ وقد رد الله ﷻ هنا على هذه الأسئلة كلها بقوله ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾.. أي إذا كنتم تودون أن يصدر عنكم صالح الأعمال فعليكم بأكل الحلال والطيب. أما إذا أكلتم الحرام وانغمستم في الغش والخداع والجشع وسوء المعاملات، ومع ذلك ظننتم أن بإمكانكم أن تتقدموا في الحسنات وتتولد محبة الله تعالى في قلوبكم، فليس ظنكم هذا إلا ضربًا من الوهم. لا بد لكم من التخلي عن أحد الاثنين: فإما أن تُحرَموا الأعمالَ الصالحة، وإما أن تتركوا أكل الحرام. أما من حاول الجمع بين الاثنين فليس لـــه إلا الفشل. وإنما النجاح لمن ترك أكل الحرام، وسعى لكسب الحلال والرزق الطيب.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾. والمراد من ﴿أُمَّتُكم﴾ هنا هو أمة الأنبياء لا الأتباع. وقد بين الله تعالى بلفظ ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أنكم إذا تدبرتم في تاريخ الأنبياء وجدتم تشابهًا بين جميع الأنبياء من حيث أحوالهم وتعاليمهم ودعاويهم. فكما أن نوحًا دعا إلى التوحيد كذلك فعل الأنبياء الذين جاؤوا من بعده، وعلّموا الناس أن الله أحد. ثم جاء رسل آخرون ودعوا إلى التعليم نفسه. ولم يزل المنكرون يهلكون. ثم جاء موسى وهارون وعرضا على الناس التعليم نفسه. ثم أتى المسيح ابن مريم، وجعله الله آية للدنيا، وأنقذه من أعدائه وآواه إلى مكان آمن. فاتضح من ذلك أن توحيد البارئ تعالى هو أهم وأفضل ما في الدين، وأن الأنبياء كلهم قد دعوا الناس إلى التوحيد، فصاروا غالبين على أعدائهم دائمًا. فكيف تصحّ إذًا عقيدة بُنوّة المسيح هذه التي اخترعتها أمته من بعده.

ثم يبين الله تعالى سبب ذلك فقال ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾.. أي أن السبب الحقيقي لهذا الاختلاف أنه لما مات الأنبياء ومضى دهر طويل على تعليمهم، قام أتباعهم بتشويه تعليمهم الحقيقي من جراء الغفلة، فوُجدت مذاهب

مبتدعة. ولما كان كل دين يتضمن بعض الحقائق ففرح أتباعه بعرض تلك الحقائق ظانين أنهم على الحق، مع أنهم ما داموا قد قطّعوا دينهم الحق، فمن الطبيعي أن يكون عندهم أيضًا بعض الحقائق. فوجود تلك الحقائق عندهم ليس دليلاً على صدقهم، وإنما الصادق من عنده التعليم الحق الكامل.

ثم يقول الله تعالى ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾.. أي أن هؤلاء يظنون أن ما أُوتوا من مال وأولاد إنما أوتوه لكونهم أهل عزة ومنـــزلة. كلا، إنهم لا يدرون أن هذه الأشياء هي التي ستؤدي بهم إلى الهلاك.

وعلى النقيض، لقد بين الله تعالى هنا أن من علامات المؤمنين أنهم يرتعدون دائمًا من خشية الله تعالى، ويؤمنون بآياته، ولا يشركون به شيئًا، ويفعلون كل خير ومع ذلك يظنون أنهم مقصّرون، ويوقنون أن الله تعالى محاسبهم.. أي برغم أنهم يفعلون الحسنات بكل أنواعها، إلا أن هذا لا يبعثهم على الكبر والزهو، بل يزيدهم تواضعًا، فتستولي خشية الله على قلوبهم قائمين وقاعدين.

لقد أشار الله تعالى بهذه الآيات إلى أنه لن يفوز في هذه المواجهة بين الكفر والإسلام إلا الفريق الذي تتوافر فيه المزايا الأربع التالية: الأولى خشية الله، والثانية الإيمان بآيات الله، والثالثة تجنب الشرك، والرابعة خدمة الدين مع الشعور بالتقصير. فعن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت للنبي ﷺ مرة: يا رسول الله، ما المراد من قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هل يعني أن للمرء أن يفعل ما يشاء شريطة أن يخاف الله تعالى؟ فقال النبي ﷺ: كلا، وإنما معناه أن على المرء أن يفعل الخير ومع ذلك يخشى الله تعالى* (تفسير فتح البيان).

---

* نص الحديث: "عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت: يا رسول الله، قول الله ﷻ ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله ﷻ؟ قال: لا، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق، وهو مع ذلك يخاف الله ﷻ." (المستدرك للحاكم: كتاب التفسير: تحريم المتعة). *(المترجم)*

ثم يقول الله تعالى ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.. أي أنهم يتحلون بروح التنافس في الخير. والحق أن التنافس عاطفة فطرية في كل إنسان حيث يود أن يتقدم غيره في مجال الرقي. وهذه العاطفة هي التي تجعل الطالب يجتهد ويسبق غيره من الطلاب. وهذه النـــزعة هي التي تجعل الأولاد يسعون جاهدين لكي يسبقوا الآخرين في الألعاب فيحتلّوا مكان الصدارة. وهذا الوجدان هو الذي يدفع التجّار والصنّاع والزُّرّاع والأطبّاء والمهندسين والمخترعين لينافسوا أقرانهم في مجالاتهم الخاصة. وتماشيًا مع هذه العاطفة نفسها تسعى الحكومات والشعوب إلى اكتساب القوة لتحتل مكانة أرفع من غيرها. بل إن نـــزعة التسابق هذه موجودة حتى في الحيوانات. فمثلاً إذا كان هناك فرسان يجريان الواحد خلف الآخر، فبمجرد أن يسمع الأول منهما صوت قدم الثاني فإنه يسرع خطاه كيلا يسبقه؛ وعندما يرى الحصان الثاني أن الأول قد أسرع خطاه فإنه يشتد جريًا، وفي كثير من الأحيان يتقدم الحصان الثاني الحصانَ الأولَ.

إذًا، فهي عاطفة طبيعية وفطرية وتوجد في البشر كلهم. وقد لفت الإسلام أنظار المؤمنين إلى هذه العاطفة الطبيعية نفسها وقال إن من واجبكم منافسة الآخرين وسبقهم في كافة مجالات الحياة. فإذا كنتَ معماريًا فعليك أن تسعى جاهدًا كيلا يسبقك معماري من أمة أخرى. وإذا كنت صانعًا فابذل جهدك حتى لا يسبقك صانع من قوم آخرين. وإذا كنت مخترعًا فلا تدخر وسعًا في أن تتفوق على مخترعي الأمم كلهم. وإذا كنت طبيبًا فلا تألُ جهدًا في هذا المجال حتى لا يتفوق عليك طبيب من شعب آخر. كما يجب أن تكون قدوة عالية في الأمانة والصدق بحيث لا يجاريك في هذا الخير أحد من قوم آخرين. وإذا فعلتم ذلك كنتم أساتذة للدنيا ومعلمين للعالم، وسيتبعكم الناس مضطرين.

إنني أتذكر جيدًا أن السيد سترك لاند، وكان أمين السجل للجمعيات التعاونية، جاء مرة لزيارتي في مدينة "شملة". فقال لي خلال الحديث إني أستغرب كيف يعمل جُباة أموال التبرعات في جماعتكم بأمانة؟ فكل من أستعمله لجباية الأموال في عملي تنكشف خيانته بعد أيام قليلة، فأضطر لطرده من العمل. فقلت

لـــه إن الجباة عندنا لا يخونون لأنهم يؤمنون بأن الخيانة تضيع الإيمان. وكان السيد سترك لاند يريد السفر إلى إنجلترا في إجازة، فقال لي: إذا عدتُ إلى الهند ثانية سألتمس من الحكومة أن تبعث جُباةَ الجمعيات التعاونية إلى إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية ليتدربوا عنده أولاً ستة أشهر، ليولد فيهم روح الأمانة. لقد تولد هذا الإحساس بتفوق جماعتنا في قلب ذلك المسؤول الحكومي الإنجليزي لأن كل فرد من جماعتنا يسعى، وفقًا لتعليم الإسلام هذا، أن يسبق الآخرين في الخيرات وأن لا يتقدمه غيره. ولو أن روح التنافس هذه تولدت في القوم كلهم، وسعى الجميع أن يتسابقوا في الخيرات لتلاشت جميع الخصومات والنـــزاعات من الدنيا، ولساد الأمن والسلام العالَمَ كله. لقد قلت لمعارضي جماعتنا مرارًا إن كيل الشتائم ليس عملاً محمودًا يُفتخر به. إذا كنتم تريدون أن تباروا جماعتنا فتعالوا نتبارى في المحاسن. وسبيله أننا إذا قمنا بتأسيس مئة مركز لدعوة الإسلام في الخارج فعليكم أن تؤسسوا في العالم مئتي مركز. وإذا أدخلنا خمسة أو عشرة آلاف شخص في الإسلام من الأديان الأخرى سنويًا، فعليكم أن تأتوا بعشرين ألف شخص منهم في حظيرة الإسلام سنويًا. وإذا كان عندنا ألفان ممن نذروا حياتهم لخدمة الإسلام، فعليكم أن تأتوا بأربعة آلاف كمثلهم، واسعوا لنشر رسالة الإسلام ومحمد رسول الله ﷺ في العالم أكثر مما نسعى. ولكنهم لا يخرجون لهذه المباراة. إنما يريدون التغلب علينا بالسباب والشتائم ورمينا بتهم باطلة، ولكن الإسلام لا يسمح بمثل هذه المباريات البشعة السخيفة، بل يقول إنكم إذا أردتم أن تتسابقوا فتسابقوا في البر والتقوى وحُبّ الله تعالى والتعلق به. تَنافَسوا في نشر دعوة الإسلام ورفع اسم محمد رسول الله ﷺ، وتَباروا في اتخاذ التدابير اللازمة للرقي المادي، بدلاً من أن تهدروا طاقاتكم في منافسات شريرة.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٣﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

الحق: حَقَّه حقًّا: غلَبه على الحق. وحَقَّ الأمرَ: أثبتَه وأوجبَه؛ كان على يقين منه. والحق: ضدُّ الباطل؛ الأمرُ المقضيّ؛ العدلُ؛ المالُ؛ المِلك؛ الموجودُ الثابتُ؛ اليقينُ؛ الموتُ؛ الحزمُ (الأقرب).

التفسير: أي لقد أمرناكم بأن تتسابقوا في الخيرات، ولكنا لا نتوقع من الإنسان إلا ما في وسعه. ما كان لنا أن نتوقع منه أكثر مما يستطيع، أو نعاقبه على عدم قيامه بما هو فوق طاقته.

الواقع أن الإسلام يراعي التفاوت الموجود بين طبائع الناس، ويأخذ في الحسبان ما يوجد في طاقاتهم من اختلاف. خذوا الصلاة مثلاً، إنها من القضايا الأساسية في الإسلام، وجميع المسلمين مأمورون بأدائها خمس مرات في المسجد جماعةً. ولكن الله تعالى قد أوضح أيضًا أن الأرض كلها مسجد لله تعالى، فإذا لم يوجد مسجد في مكان فلا يجوز لكم ترك الصلاة، بل يمكنكم أن تؤدوها في أي مكان نظيف في الأرض. وإذا كنتم مرضى أو على سفر فيمكن أن تصلوا بغير جماعة. كما أن الإسلام قد اشترط الوضوء للصلاة، ولكنه قد صرح أيضًا أن المرء إذا لم يجد الماء أو كان استعمال الماء ضارًا بصحته، فعليه بالتيمم. كما قال إنه إذا لم يقدر على الصلاة قائمًا فلـــه أن يصلي جالسًا، وإذا لم يستطع أن يصلي جالسًا فليصلِّ مستلقيًا. وإذا كان لا يقدر على ذلك أيضًا فيكفيه أن يصليها بالإشارات.

ونفس الحال للصيام. لقد فرض الإسلام صيام رمضان، ولكنه قد صرح أيضًا أنكم لو كنتم مرضى أو على سفر فيمكنكم أن تصوموا الأيام الفائتة في أيام أخرى بعد المرض أو بعد العودة من السفر.

وقد حثّ الإسلام على الجهاد كثيرًا، ولكنه قد صرح أيضًا أن المريض والضعيف والأعرج الذي لا طاقة به للقتال، ولكن قلبه يتلهف لأن يشترك في الجهاد لو كانت به قوة، فإنه عند الله في عداد الأصحاء الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم. قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾(النساء:٩٦).. أي من المحال أن ينال المؤمنون الذين لا يقومون بخدمة الدين درجة المؤمنين الذين يشتغلون في خدمة دين الله وإعلاء كلمته بكل طاقاتهم. بيد أن الله تعالى قد استثنى منهم من يُحرَم خدمةَ الدين نتيجة ضرر ومرض، فإنه تعالى سيأخذ عذرهم في الحسبان ولن يحرمهم قربه وثوابه ﷻ.

وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة بكلمات أخرى إذ قال ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ (الأعراف:٩).. أي حين يتلقى الناس جزاء أعمالهم من الله تعالى يوم القيامة فيوضع في الحسبان كل شيء كان يعيق رقي الإنسان، فيُنظر في الأمور التي كان معذورًا في تركها حقًّا، وأيضًا في الأمور التي قد تركها غفلة وتهاونًا.

إذًا، فمن مزايا القرآن الكريم أنه لم يهمل أي جانب من جوانب الفطرة الإنسانية، و لم يأمر بما يشقّ العمل به على طبائع البشر، بل قد آتى من السهولة ما يمكّن كلَّ إنسان، أيًا كانت فطرته وطبعه، من العمل بأحكامه. فكما أن الله تعالى قد خلق في هذا العالم المادي الأشياء صنوفًا وألوانًا بحيث يستحيل على أي إنسان، أيًا كانت فطرته وطبعه، أن يقول إن الله تعالى لم يخلق لسهولتي شيئًا. فإذا كانت أسنانه قوية قادرة على مضغ الصلب من المأكولات فهناك طعام صلب. وإذا كانت أسنانه ضعيفة وكان بحاجة إلى طعام لين، فليس في الدنيا عوز في الأطعمة اللينة. وبالمثل ففي العالم الروحاني أيضًا قد هيأ الله تعالى من خلال القرآن تعليمًا لرقي الطبائع البشرية بشتى أنواعها، وأتاح كثيرًا من اليسر والسهولة حتى لا يسع أي

إنسان أمين أن يقول أن شرع الإسلام غير قابل للعمل بالنسبة لـــه. لا شك أن الشخص المتعنت يمكن أن يقدم شتى الحجج والمعاذير، ولكن الواقع أن أحكام شرع الإسلام تتسم بالمرونة والليونة بحيث يستطيع كل إنسان، أيًا كان طبعه، أن يعمل بها بيسر وسهولة.

وعلى النقيض، تعرض المسيحية على الدنيا التعليم التالي: "المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا" (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣: ١٣). وهذا يعني أن الله تعالى – والعياذ به – طوّق الناس بغُلٍّ اللعنة بواسطة موسى عليه السلام، فجاء المسيح ونـــزع هذا الغلّ من أعناقهم، وحررهم من العمل بأحكام الشرع. والواقع أن هذه الفكرة أبشع تهمة وأشنعها على قدوسية الله وسبوحيته، إذ يقال أنه تعالى فقد بصيرته فأنـــزل بواسطة موسى أحكامًا يستحيل على الناس العمل بها. إن الإسلام يرفض هذه العقيدة البشعة مؤكدًا أن الشرع إنما ينـــزل بأحكام يمكن أن تعمل بها الدنيا. فالشرع ليس لعنة، بل الانحراف عن الشرع لعنة، ويجب على كل إنسان أن يتجنب هذه اللعنة.

أما قوله تعالى ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾، فقال المفسرون إن الكتاب هنا يعني سجل أعمال الإنسان الذي ترفعه الملائكة؛ وبما أن الملائكة يقومون بتسجيله بأمر الله تعالى فنسبه إلى نفسه وقال ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾. وقيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: هو القرآن الكريم. (القرطبي)

ولو كان الكتاب بمعنى سجل الأعمال فالمراد من قوله تعالى ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾.. أننا سنحكم يوم القيامة حكمًا ينال به كل إنسان جائزته بقدر ما يستحقها، ولن نغض الطرف عما يبرئ ساحة أحد من الجريمة.

بيد أن سياق الكلام يدل على أن الحديث هنا يدور عن الشريعة الإسلامية حيث بيّن الله تعالى أنه ليس فيها ما هو غير صالح للعمل به، بل فيها ما يمكن أن يعمل به كل إنسان أيًّا كان طبعه وفطرته، لذا فالمراد من قوله تعالى ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ هو القرآن الكريم نفسه، وقد سلط الله تعالى هنا المزيد من الضوء على محاسن الشريعة الإسلامية. وقال الإمام الراغب – رحمه الله – في كتابه الشهير

في بيان معاني غريب القرآن الكريم "المفردات" إن لفظ الحق يُطلَق على كل ما هو مطابق لمقتضى الحكمة، "لهذا يقال: فعلُ الله تعالى كله حقٌّ، وقال تعالى ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا.... إلى قوله تعالى: مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلا بِالْحَقِّ﴾ (انظر المفردات تحت كلمة "الحق")... أي أنه تعالى لم يخلق هذه الأشياء عبثًا، بل جعل في خلقها حكمًا عظيمة.

ثم ذكر صاحب المفردات أن إحقاق الحق يعني إكمال الشريعة كقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(المرجع السابق). فقد سُمّي الإسلام هنا دين الحق لأنه غالب ومتفوق على الأديان كلها بسبب شرعه الكامل.

وعليه فقوله تعالى ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يتضمن مفهومين: أولهما أن عندنا كتابًا مشتملاً على الأحكام الحكيمة كلها. وثانيهما أن لدينا كتابًا هو أفضل الشرائع كلها بسبب كماله. وهاتان الميزتان لا تتوافران في أي كتاب في الدنيا سوى القرآن الكريم.

ففيما يتعلق بفلسفة الأحكام وحكمتها، فهذه الجملة القرآنية تؤكد على أن أحكام الإسلام كلها تتضمن بعض الحِكم والمحاسن، فإن الإسلام لم يأمرنا بها لمجرد أن يأمرنا وينهانا، بل قد أمرنا بها لغاية وضرورة. نرى في الدنيا أحيانًا أن السيد يأمر عبده بفعل شيء لا يوجد وراءه أي حكمة، أو يأمره بشيء لمجرد أن يعاقبه من دون أي حكمة، فيقول لـــه مثلاً قُمْ متوجهًا إلى الجدار. وليس في هذا الأمر أي حكمة سوى أنه يريد إذلاله وإهانته. ولكن الله تعالى يخبرنا أن كل حكم من أحكام الإسلام ينطوي على حكمة وغاية. إننا لم نؤمر في الإسلام بشيء إلا وفيه منفعة للجنس البشري، ولم نُنْهَ عن شيء إلا لأنه ضار بنا. وهذا هو من المزايا البارزة التي يتفوق بها شرع الإسلام على الشرائع الأخرى كلها. إن أحكام الشرائع الأخرى لا تخضع لحكمة وفلسفة، ولكن الإسلام لم يأمرنا بشيء بغير هدف وحكمة. خذوا الصلاة مثلاً، فإن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة مبينًا لنا فائدتها أيضًا فقال ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(العنكبوت:٤٦).. أي أن الصلاة

تتضمن تعاليم حكيمة وغايات سامية بحيث لو صلى المرء كما ينبغي لنجا من الفحشاء والمنكر يقينًا. علمًا أن الفاحشة هي "ما اشتدّ قبحُه من الذنوب".. أي الخطأ الشديد الواضح القبح بحيث يبدأ الناس يشيرون إلى مرتكبه مستقبحين إياه، أما المنكر فهو "ما ليس فيه رِضى الله من قولٍ أو فعلٍ" (الأقرب). فالصلاة نافعة لهذه الدرجة بحسب القرآن الكريم. والحق أننا لو تركنا أحكام الإسلام الأخرى جانبًا، وأمعنّا النظر في حكم الصلاة فقط لانكشف لنا فضل الإسلام بكل جلاء، ولم نجد بدًّا من التسليم بأن من يصلي بصدق القلب لا بد أن ينجو من الفحشاء والمنكر. إن كل مسلم يصلي خمس مرات في اليوم، وفي كل صلاة فرائض وسنن ونوافل. ثم هناك صلاة التهجد والضحى وغيرهما. ويقرأ المصلي في كل ركعة من هذه الصلوات سورة الفاتحة، ويدعو ربه قائلاً ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.. أي يا رب، إن حياتي عبارة عن أعمال سيئة وصالحة، منها ما هو مستحسن يتفق والأخلاق العالية، ومنها ما هو مستهجن وساقط عن مستوى الأخلاق الحميدة. فأدعوك يا رب، أن تثبّت قدمي دائمًا على الطريق المستقيم، الذي إذا سلكتُه لم أرتكب ظلمًا ولا عدوانًا ولا فاحشة، وتجنبتُ كل ضرر وخسارة. فالشخص الذي يدعو بهذا الدعاء ليل نهار بقلب صادق، فأنّى له أن يقع في السيئات والمعاصي؟ بل كلما خطرت بباله شهوة من الشهوات سيقول في نفسه: يجب أن أسلك لإشباعها طريقًا مستقيمًا.. أي طريقًا حلالاً شرعه الله تعالى لي، ولا أتبع طريقًا حرامًا غير مشروع. وكلما فكر في الأكل والشرب تراءى أمام عينيه قول الله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾(الأعراف:٣٢). وكلما دخل في معاملة مع الناس تَذَكّرَ أن من واجبه تجنب الغش والخداع لأن هذا ظلم. قصارى القول إن الذي يقوم بهذا الدعاء في الصلاة واعيًا أنه يصلي ولا يقوم بتمثيلية هزلية ساخرًا بالدين، حرص على الدوام على أن يتوخى طريقًا مستقيمًا لا عوج له في أكله وشربه، وعلاقاته مع الأصدقاء، ومعاملاته مع الأهل والأولاد، وفي مسؤولياته وواجباته الاجتماعية والمَدَنية، وفي علاقاته مع البلاد الأجنبية والشعوب الأخرى. إن الذي يسأل الله تعالى شيئًا لماذا لا يكون مستعدًّا للعمل بما

يتفق مع مسألته. هل وجدتَ بين الناس من يسأل الله تعالى أن يصيبه بمرض الكوليرا يا ترى؟ لماذا لا يدعو بذلك؟ إنه لا يدعو هكذا لأنه يستقبح الكوليرا، إذ لو استحسنه لسأل الله إياه. فثبت من هنا أن المرء إنما يسأل الله تعالى ما يراه حسنًا، وإذا رآه حسنًا فلا بد أن يسعى لاقتنائه أيضًا.

ثم إن المصلي لا يسأل الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم فحسب، بل يدعوه أيضًا ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.. أي يا رب لا أسألك أن تهديني إلى الصراط المستقيم فحسب، بل أتمنى أيضًا أن توفقني لسلوك طريق المقربين الذين لـــهم حظوة خاصة في بلاطك. إنني لا أريد السير في طريق الأناس العاديين، ولا أريد أن أسلك طريق المتوسطين، بل أريد أن أتبع خطوات الذين أنعمتَ عليهم. وقد وصف الله المنعم عليهم هؤلاء في مكان آخر من القرآن الكريم فقال ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾(النساء:٧٠).. أي أن حزب المنعم عليهم هو حزب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وهذا يعني أن كل مؤمن لا يدعو ربه في صلاته الخمس يوميًا بأن يجنّبه السيئة ويوفّقه للخير فحسب، بل يقول ربِّ هَبْ لي الخير الذي وهبتَه لموسى وعيسى؛ وربِّ جنِّبْني السوء كما جنّبتَه نوحًا ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء والرسل. كم هو رفيع هذا المقام الذي علّمَنا الله هذا الدعاء للوصول إليه! وما أشدَّ هذا الدعاءَ قوةً وإثارة! فمن صلى بصدق القلب سعى للوصول إلى ذلك المقام، وإذا سعى فلا بد أن يكون أفضل حالاً من الذين لا يوجد في قلوبهم هذا الحماس، كما لا بد أن يتجنب كل نوع من السيئات، ويقوم بكل نوع من الحسنات.

ثم إن الله تعالى قد أمر المصلي بأن يدعو في صلاته بصيغة الجمع للمتكلم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، مع أنه شخص واحد. فما الحكمة في ذلك؟ علينا أن نتدبر ونعرف الحكمة وراء هذا الأمر الرباني. إن الإمعان في الأمر سيكشف لنا أن المصلي حين يدعو في صلاته بصيغة الجمع فإنه يضم إلى نفسه غيره أيضًا، وهم الناس كلهم، أو المسلمون كلهم، أو أهل دولته كلهم، أو

أهل مدينته كلهم، أو سكان حيه كلهم. إنه يدعو الله في صلاته بكل حرارة وحماس: اللهم انصرْنا جميعًا، واهدِنا جميعًا إلى الصراط المستقيم، ونجّنا من السيئات، ووفِّقْنا للقيام بأفضل الصالحات. في حين أن الشخص الواقف بجنبه في الصف ربما يتمنى أن تنتهي الصلاة بسرعة ليعود إلى البيت، ليعلّف المواشي أو يُحضر لزوجته المريضة الدواء من الطبيب. إن هذا يصلي في الظاهر، ولكنه يفكر في أمر آخر في الواقع. فالعبد المؤمن حقًّا يُشرك في دعائه هذا الشخص الواقف بجنبه والغافل عن صلاته كلية، والناسي لربه حتى في صلاته، فيدعو لـــه ويقول يا رب اهدِ أخي هذا أيضًا، واشرَحْ صدره للخير.

ثم إن المصلي حين يستعمل صيغة الجمع للمتكلم فإنه يُشرك في دعائه سكّان الحي أيضًا، إذ نرى أنه لا يحضر الصلاة في المسجد إلا بعض أهل الحي بينما يظل الباقون مشتغلين بأعمالهم، ويكذبون في حديثهم بكثرة، فمثلاً يحلف صاحب الدكان لزبونه بأن الشيء يبيعه بأربعة قروش وربع قرش وأنه قد اشتراه هو بأربعة قروش، مع أنه يكذب في حلفه إذ لم يشتر الشيء إلا بقرش ونصف قرش. أو يقول مثلاً إنه سمن خالص تمامًا، مع أنه قد خلط فيه الشحم. وهذا يعني أنه لا توجد خشية الله تعالى في قلبه على الإطلاق. ولكننا حين نكون ماثلين أمام الله تعالى نقول لـــه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.. أي اللهم اهدِ إلى الصراط المستقيم إخواننا أيضًا الذين يعيشون معنا في حيّنا ولم يحضروا الصلاة في المسجد تقصيرًا منهم، والذين يكثرون من قول الزور ويفسدون عاقبتهم. فلو صلى المرء بتدبر ووعي على هذا النحو لازداد قلبه حبًّا لبني جنسه، وحماسًا لإصلاح الجميع وهدايتهم، وصار الجميع في مأمن من المساوئ والذنوب. ومن دعا لجيرانه وسكان حيه وأهل مدينته بهذا الحماس والحرارة فلا بد أن يستجاب دعاؤه في يوم من الأيام، فيهتدي إخوانه الآخرون أيضًا. ولا يمكننا القول أن دعاءه لن يستجاب، إذ لولا ذلك ما علّمنا الله تعالى هذا الدعاء. فتعليم الله لنا هذا الدعاء دليل على أنه دعاء مجاب. وما دام دعاءً مجابًا فلا بد أن يؤدي إلى هداية بعض القوم في يوم من الأيام، إذ يهتدي المرء نتيجة وعظ واعظ حينًا، أو يتوجه إلى الله تعالى عند نـــزول

بلية في أهله أحيانًا؛ ومهما كان الطريق الذي ستتيسّر الهداية للشخص الآخر من خلاله في يوم من الأيام، فإنه يكون نتيجة لذلك الدعاء، وهكذا فالصلاة لا تنهى المصلي عن السيئات فحسب، بل تصدّ غيره أيضًا عن الفحشاء والمنكر.

ثم إن الصلاة تعني الدعاء أيضًا بالإضافة إلى معنى العبادة، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ أن هذه الصلاة التي علّمناكم إياها تنهى عن الفحشاء والمنكر بالنظر إلى مفهوميها. فلو أخذنا الصلاة بمفهوم العبادة فالمعنى أن المرء إذا حضر بلاط الله تعالى بإخلاص ومحبة مرةً بعد أخرى، فلا بد أن يسعى جاهدًا لتجنب الفحشاء والمنكر، وهكذا ستصونه هذه العبادة من الذنوب والمعاصي. أما إذا أخذنا الصلاة بمعنى الدعاء فأيضًا قامت بحمايته من الفحشاء والمنكر، إذ يدعو فيها مرة بعد أخرى يا رب ارحمني وارحم جاري وأهل بلدي وأقاربي ومعارفي. ولو استجيب دعاؤه هذا ولو مرة في حياته كلها فلا بد أن يهتدي به شخص واحد على الأقل، وهكذا ستؤدي الصلاة إلى هداية المصلي وأيضًا هداية من سواه وستجنّبهم الفحشاء والمنكر. والحق أن المسلمين الذين يبلغ عددهم اليوم ستمئة مليون لو أخذوا يصلّون بصدق القلب، ولو أدى دعاءُ كل واحدٍ منهم إلى هداية شخص واحد لبلغ عدد المسلمين ببركة هذا الدعاء بليونًا ومئتي مليون، ولصار الإسلام غالبًا واستعاد مجده الغابر حتمًا.

وهنا يقول البعض إننا ندعو في الصلوات ولكن أدعيتنا لا تجاب. فليتذكر هؤلاء أن العيب ليس في الدعاء، بل فيهم هم. إنهم يدعون ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وقلوبهم غير موقنة باستجابة هذا الدعاء. فما داموا غير مستيقنين بأن الله تعالى يمكن أن يعطيهم فلماذا يعطيهم إذًا؟ ما داموا يظنون بالله ظن السوء وينكرون قدرته فلماذا يستجيب لهم. بينما نرى أن رسول الله ﷺ وأصحابه أيضًا قالوا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فدخلت الجزيرة العربية كلها في الإسلام وكذلك الشامُ وفلسطين ومصر وإيران. لم يكن عند أهل هذه البلاد عقول تختلف عن عقول أهل هذا العصر. كلا، بل إن نفس المساوئ التي هي منتشرة اليوم في أوروبا وأمريكا كانت منتشرة بين أولئك القوم أيضًا، ومع

ذلك نالوا الهدى. وكيف حدث ذلك يا ترى؟ إنما سببه أن المسلمين في ذلك العصر كانوا يصلّون موقنين بأن الله تعالى يستجيب دعاءهم. والحق أنه لا تتولد في قلب المرء اللوعة والرقة إلا إذا كان عنده يقين كامل بالله تعالى. فمثلاً لو تعرض المرء للهجوم من قبل أحد الصعاليك وفرّ من وجهه للنجاة، ووصل إلى بيت وطرق بابه، ونادى صاحبَ البيت بصوت عال، فلا شك أنه سيستنجده ويستحلفه بالله تعالى لفتح الباب بألم لا مثيل لـــه. ولكنه لو فرّ وصعد صخرة ما، وأخذ يستصرخ بصوت عال افتحوا الباب افتحوا الباب، ليخوّف بذلك الصعلوك ويوهمه أنه يستنجد بأحد، فلن يتولد الألم في ندائه، لأنه بنفسه يعلم أنه لا يوجد هناك أحد وإنما يصرخ تخويفًا للعدو فقط. وبالمثل فإن الذي يؤدي الصلاة بإخلاص موقنًا بأن الله تعالى يستمع لدعائه فلا بد أن يتولد في قلبه خشوع وحماس يستحيل أن يتولد في قلب من يصلي تظاهرًا ورياءً غيرَ موقن بالله وقدرته ﷻ.

ثم هناك حكم الصوم، وقد صرّح الله تعالى بصدده في القرآن الكريم وقال إننا قد فرضنا عليكم الصيام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. والصوم هو أن نمتنع عن تناول الطعام والشراب ابتغاء مرضاة الله تعالى برغم أن الطعام أو الشراب متوافر لدينا في البيت. فالذي يصوم بنية خالصة لله تعالى، ويترك طعامه وشرابه لوجه الله تعالى، أنّى لـــه أن يأكل طعام غيره بطريق غير مشروع. ومن بلغ من الإخلاص درجة بحيث يتورع عن الانتفاع بماله هو ابتغاء وجه الله تعالى، فكيف يمكنه أن يسطو على أموال غيره. إنما يسعى لسلب أموال الآخرين من لا يصوم، أو الذي يصوم ولكن تقليدًا فحسب، غيرَ راغب في حقيقة الصيام وغرضه، إذ لا قيمة لصومه. فقد قال النبي ﷺ ليس الصوم أن تجوع وتظمأ فقط، وتخاصم الناس وتسبّهم وتعيث في الأرض الفساد، فهذا ليس بصوم بل هو عطش وظمأ فحسب.

كذلك ورد في القرآن الكريم أن الناس يذبحون الأضاحي ظانين أن ربهم سيرضى عنهم بها، ولكن الله تعالى يعلن أنه ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾(الحج:٣٨). كما يقول تعالى من قبل ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾(الحج:٣٧). لقد بين الله تعالى هنا

فلسفة القرابين، وبين لنا الهدف من تقديم الأضاحي. فكثير من الناس يعترضون قائلين ما الفائدة من تقديم هذه القرابين؟ إن الناس يأكلون اللحم طوال السنة فما الداعي أن يأمرهم الله تعالى بذبح الحيوانات في يوم معين؟ إن هؤلاء الطاعنين لا يدرون أن الله تعالى قد أمر بهذه القرابين من أجل الفقراء الذين لا يتيسر لهم اللحم في الأيام الأخرى إلا نادرًا. لا شك أن الأثرياء يأكلون اللحم طوال السنة، ولكن الفقراء لا يجدون اللحم في بعض الأحيان لعدة شهور، فمن أجل هؤلاء قد أمر الله تعالى بذبح القرابين بمختلف المناسبات كالحج والعقيقة والزفاف. ورد في الحديث أن أحد أصحاب النبي ﷺ جاءه يخبره أنه قد تزوج. فقال لـــه النبي ﷺ: أبِكْرًا أم ثيِّبًا؟ قال: يا رسول الله، لقد صار إخوتي أيتامًا، فتزوجت امرأة ثيبًا لترعاهم ولكي أثاب على الزواج من ثيب. فقال لـــه النبي ﷺ أحسنتَ، ولكن عليك بتقديم طعام الوليمة ولو بشاة.◈

وقد أمرنا الإسلام بتقديم القرابين بمناسبة العقيقة أيضًا. ذلك لأن هناك ذنوبًا معينة قد جعل الله تعالى كفارتها أن تقدم قرابين الحيوانات.

وفي صدقة الفطر أيضًا تكمن الحكمة نفسها.. أي أن يتمكن الفقراء بهذه الأموال من شراء اللحم وما إلى ذلك بمناسبة العيد. ولولا هذه الأحكام بتقديم القرابين في الإسلام لظل الأثرياء يتمتعون بأكل اللحم دون أن يهتموا بالفقراء.

قصارى القول إن هناك حكمًا بالغة في أحكام الإسلام كلها، وهذا ما يؤكده الله تعالى هنا بقوله ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾.. أي ليس هناك حُكم من أحكامنا هو خال من حكمة وفلسفة، أو ليس فيه منفعة من المنافع لبني آدم. من المحال أن يتضرر الناس بالعمل بأحكام القرآن. كلا، بل إن العمل بأحكامه لن يزيدهم إلا نفعًا وبركة.

◈ هذا الأمر مذكور في واقعتين مختلفتين: فجابر ﷺ هو الذي سأله الرسول ﷺ: "أبكرًا أم ثيبًا"؟ وعبد الرحمن بن عوف ﷺ هو الذي قال له الرسول ﷺ: "أَولِمْ ولو بشاة". (انظر البخاري: كتاب المغازي، قوله تعالى إذ همت طائفتان، وكتاب النكاح: باب الوليمة ولو بشاة) *(المترجم)*

أما بناء على المعنى الثاني للحق وهو الكمال، فسيعني قوله تعالى ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ معنى آخر، وهو أن هذا الكتاب يشتمل على شرع كامل، وليس في تعاليمه ما يصير باطلاً بمرور الزمن، بل إن النظريات التي يقدمها الإسلام ستظل غالبة على الدنيا، ولن يأتي عليها وقت تشعر فيه الدنيا بحاجة إلى تغييرها. فقد ورد في القواميس أن من معاني الحق "الموجود الثابت" و"الأمر المقضي" (الأقرب). والحق أن الأمر المقضي القطعي هو الأمر الذي لا يمكن تبديله، والشيء الثابت القائم هو ما يكون كاملاً. فالواقع أن قول الله تعالى ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يمثّل إعلانًا بكمال القرآن الكريم، حيث بين الله تعالى أنه آخرُ هدي للدنيا وأكمَلُه. وقد سجل القرآن الكريم هذه الدعوى في موضع آخر أيضًا فقال ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(المائدة: ٤). لقد نـــزلت هذه الآية على النبي ﷺ في حجة الوداع لدى فتح مكة حين فُتح لـــه ولأصحابه الطريق للحج والعمرة (البخاري: كتاب المغازي، باب حجة الوداع). وكان هذا هو الحج الأخير للنبي ﷺ حيث تُوفي بعده بثمانين يومًا، ومن أجل ذلك سُمي هذا الحج حجة الوداع. وقد أوصى النبي ﷺ أصحابه في هذه الحجة وصايا تحير منها الصحابة وقالوا لماذا ينصحنا الرسول ﷺ هكذا، ولكنه لما توفي ﷺ بعد ذلك بثمانين يومًا علموا عندها أن الله تعالى كان قد أخبره باقتراب أجله، فكان يوصي المسلمين عندها بوصاياه الأخيرة. لقد نصح النبي ﷺ وقال أيها المسلمون إني أوصيكم بحسن معاشرة النساء. أيها المسلمون إني أنصحكم بحسن معاملة العبيد والخدم. ثم قال ﷺ إن التناحر والتحارب أمر منكر جدًّا، لذا فأود أن أوصيكم بوصايا كما أوصى إبراهيم عليه السلام بوصايا بشأن حرمة مكة. ألا إن دم كل مسلم وماله وعِرضه حرام في شرع الإسلام، فلا يصابَنَّ مسلم بيدكم في نفسه وماله وعرضه. وبما أن العرب كانوا يتحاربون على أتفه الأمور وكانت حروبهم تستمر فترة طويلة فتحدث النبي ﷺ عن الحرب وقال يجب أن توضع نهاية لهذه الحروب إذ من المستحيل أن تتحلى الأمة المتحاربة بأخلاق سامية، فقال ﷺ ألا إني أعلن نهاية جميع تلك الحروب الجارية منذ الجاهلية في يومي هذا وفي مقامي هذا. ثم ضرب النبي ﷺ الأرض بقدمه

وقال ها أنا أدوس كل تلك الدماء السابقة تحت قدمي هذه. فلا يأخذنّ أحد ثأره من غيره بسبب النـــزاعات والخصومات السابقة. ثم قرأ النبي ﷺ قول الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾.

ويرى بعض الصحابة وكثير من المفسرين أن هذه الآية آخر ما نـــزل من القرآن على النبي ﷺ، ولكن البعض الآخر لا يرى هذا الرأي، إلا أنه لمن المؤكد أن هذه الآية هي من الآيات القلائل التي نـــزلت في أواخر حياة النبي ﷺ وإن لم تكن آخر آية (القرطبي). إنها تعلن أن الله تعالى قد أكمل الشريعة، فلن ينـــزل بعد ذلك حكم جديد، كما لن ينـــزل بعد ذلك ما يلغي هذه الأحكام. لقد ثبت بذلك أن شرع الإسلام مكتمل من كل النواحي وأن قانونه آخر قانون. وسواء أقبِل الهندوسُ والنصارى هذه الدعوى أم لا، إلا أنه لا مناص لمسلم من التسليم بأن أحكام الشرع قد أُكملت في القرآن الكريم، وأن جميع القوانين التي كانت الدنيا بحاجة إليها قد ضُمّنتْ فيه. لا شك أنه من الجائز سنّ القوانين المؤقتة أو المحلية أو القوانين العابرة لمعالجة القضايا الطارئة. فمثلا لو تحاربت دولتان اضطررنا لسنّ بعض القوانين لفضّ النـــزاع بينهما، إذ ليس من مسؤولية الشرع أن يخبرنا كيف يفضّ النـــزاع بين أمريكا وإسبانيا لو حصل بينهما. أما الأمور التي يناقشها القرآن الكريم والتي يكون الدين مسؤولاً عن إرشاد الإنسان بشأنها، فقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم، تفصيلاً أو إجمالاً، ثم قال كنتيجة لذلك إنه قد أتمّ نعمته على المسلمين.

ورد في الحديث أنه جاء عمرَ ﷺ قوم بينهم يهود ونصارى إذ كان هؤلاء قد صاروا رعايا لـــه، فقرأ أمامهم هذه الآية، فقال له يهودي: لو نـــزلت هذه الآية علينا نحن اليهود لاتخذنا يوم نـــزولها عيدًا. فقال عمر ﷺ إنك لا تدري أنها نـــزلت يوم الجمعة وفي حجة الوداع، وكلا اليومين عيدٌ لنا. إنك تقول لاتخذنا بأنفسنا يوم نـــزولها عيدًا لنا، ولكنا لم نتخذ بأنفسنا هذا اليوم عيدًا لنا، بل إن الله تعالى نفسه قد أنـــزل هذه الآية في يوم كان فيه عيدانِ لنا.. الجمعة والحج. (البخاري: كتاب التفسير)

لقد بين الله تعالى في هذه الآية بكل جلاء أننا قد أكملنا لكم دينكم. فما من حاجة للمسلمين إلا ويسدّها القرآن، ومن المحال أن يضطرّوا لسدّها للاستعانة من الخارج. إن جميع الأحكام مذكورة في القرآن الكريم، وإن البركة كلها في العمل بهذه الأحكام.

لقد تناول الله تعالى هذا الموضوع نفسه بمزيد من الإيضاح في سورة المائدة إذ قال ﴿وَأَنــزلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنــزلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنــزلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنــزلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۞ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(المائدة:٤٩-٥٢).

أي قد أنــزلنا إليك كتابا كاملاً وبيّنا فيه الحقائق الثابتة بكل أنواعها أيما تبيان. وهذا الكتاب محقق لنبوءات الكتب السماوية السابقة ومحافظ على تعاليمها السامية. فاحكُمْ في قضايا الناس بحسب ما أنــزل الله إليك. ولو أتاك الناس بخططهم التي نسجوها من عند أنفسهم فلا تتّبعهم ولا تعمل بخططهم، لأنك لو اتبعتَ الفلاسفة الآخرين لاضطررت لترك هذا التعليم العالي الذي وهبك الله إياه؛ إذ من المحال أن تعمل بالاثنين في وقت واحد. فإما أن تعمل بهذا أو ذاك. ولو اتّبعتَ هؤلاء لتركتَ أحكام الله وتعاليمه واستبدلتَ الذي هو أدنى بالذي هو خير.

علمًا أن الخطاب هنا موجه إلى الرسول ﷺ، ولكن المراد منه أمته. ذلك لأن النبي ﷺ ما كان ليتأثر من قول الأعداء أبدًا، فيأمر الله تعالى المسلمين بأن لا يتبعوا أقوال الناس معرضين عن تعليم القرآن الكريم وإلا سيضلّون.

ثم يقول الله تعالى هنا ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.. أي قد جعلنا لكل واحد منكم طريقًا صغيرًا أو كبيرًا للوصول إلى ماء الوحي. هناك اختلاف بين الناس. فمنهم من يقول سأتبع ما يقول آبائي، ومنهم من يقول سأعمل بما يقول الفلاسفة، ومنهم من يقول سأتبع ما يقول علماء الاقتصاد، ومنهم من يقول سأفعل ما يقوله رجال القانون. أما أنتم، أيها المسلمون، فسلوككم مختلف عن سلوكهم. ستقولون إنا لن نتبع إلا ما يقول الله لنا، بينما سيقول هؤلاء إننا لن نتبع إلا أحد الفلاسفة أو علماء الاقتصاد أو الصُنّاع أو رجال القانون. إنهم يدّعون باتّباع من لا تدّعون باتّباعه. إنهم يتّبعون الاقتصاديين والفلاسفة والمقنّنين، أما أنتم فتطيعون الله تعالى.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.. أي تذكّروا أن هذا الاختلاف الموجود بين الناس سيستمرّ إلى يوم القيامة. ستتبع أمتكم أوامر الله تعالى، بينما يتبع الآخرون ما اخترعوه من عند أنفسهم من مبادئ وقوانين. إن هؤلاء يقولون إن فلانًا من علماء النفس يقول كذا فعلينا أن نتبعه، وأن فلانًا من رجال القانون يقول كذا فعلينا أن نسير وراءه، وأن فلانًا من الفلاسفة يعلن كذا فينبغي لنا اتباعه. ولكنا لو أردنا لجعلنا الناس كلهم متفقين على فكرة واحدة. لقد كُنّا قادرين على أن نُكرِه الفلاسفة والمخترعين وأساتذة الجامعات ورجال القانون وكبار العلماء على اتّباع الإسلام، ولكنا لم نفعل ذلك لأن الشخص المكرَه المجبور لا يستحق جائزة ولا إنعامًا، فمثلاً مهما أسرع القطار الكهربائي فلن نستطيع أن نقول له: خُذْ هذه الجائزة لأنك جريتَ بسرعة كبيرة؛ ذلك لأنه لا يعمل بإرادته. ولكننا نعطي الطفل جائزة إذا ما سبق أقرانه في المدرسة في الجري. ذلك لأنه استعمل عقله وإرادته وبذل جهده. إنه لم يكن مُكرَهًا على بذل الجهد، وإنما كان حرًّا في أن يتكاسل ويتهاون، ولكنه قدم نموذجًا أحسن من غيره. لقد استيقظ مبكرًا، وتروّض على الجري، ورفع مستوى صحته، وسبق أقرانه. فكل ما فعل إنما فعله بإرادته ورضاه، ولذلك نال الجائزة. وهذا ما يؤكده الله تعالى هنا ويبين لنا السبب وراء عدم لجوئه إلى الجبر والإكراه

رغم كونه قادرًا على ذلك. إنه تعالى يعلن أنه قد خلق الفلاسفةَ ورجال الاقتصاد والقانون والعلماء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.. أي لكي يختبركم فيرى مَن يُرضي الله تعالى ومَن يتبع أهل الدنيا.

بيد أنه تعالى يقول بعد ذلك ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.. أي عليكم أن تدخلوا في سباق آخر ضد أهل الدنيا. إن فلاسفة الدنيا ورجال الاقتصاد سيقدمون خططهم إزاء الخطة التي يقدمها القرآن الكريم، وعندها تُختَبرون باختبار صعب، لأنكم ستسمعون صوت الفلاسفة والعلماء إزاء نداء الله تعالى، وعندها قد تستسلمون لهم معترفين بهزيمتكم وانتصارهم، أو قد تلجأون إلى المكابرة والعناد، فتقولون بلسانكم أن خطة القرآن هي الخطة المثلى دون أن تؤكدوا صدق دعواكم بأعمالكم، وفي هذه الحالة لن تصدّقكم الدنيا لأنها ستنظر إلى أعمالكم لا إلى ادعائكم. فإذا لم تعملوا بأنفسكم بأحكام القرآن ولم تسيروا وفق تعاليمه فإن إشادتكم به بلسانكم فقط ستلطّخ سمعته أكثر. لذا ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.. أي إذا كنتم مؤمنين صادقين، وإذا كانت قلوبكم عامرة بالإيمان حقًّا، وإذا كنتم تحبّون محمدًا رسول الله ﷺ حبًّا صادقًا، فسارِعوا إلى العمل بأفضلَ ما آتيناكم من تعاليم وأحكام، واجعلوها جزءًا من حياتكم العَملية. وحيث إنكم تملكون أفضل الخطط وتعملون بحسبها أيضًا، فستضطر الدنيا لاتباعكم تاركةً ما عندها من خطط ناقصة وقوانين فاسدة. وبتعبير آخر، لا سبيل لجلاء صدق الإسلام وعظمته على الدنيا إلا أن تسعوا جاهدين للعمل بأحكام القرآن وتطبيقها في حياتكم العَملية.

ثم يقول الله تعالى ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.. أي يا من تدّعون باتّباع محمد رسول الله ﷺ، إننا نأمركم مرة أخرى بأن تعرضوا على الناس القرآن الذي أنزلنا إليكم، ولا تتبعوا الذين يقدمون للناس خططهم التي نسجتها عقولهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾.. أي إذا لم تَعُوا رسالة القرآن ولم تعملوا بمنهجه، فإن ضعفاء الإيمان منكم سيأخذون في

اتباع الخطط الناقصة التي تُعرَض عليهم من قبل الدنيا، متخذين القرآن مهجورًا. وبالفعل ترى هذا المشهد ماثلاً أمام أعينك اليوم. لقد كان عند المسلمين تعليم عال، ولكنهم لم يعملوا به، فتولدت بينهم أفكار بأنه لا بد لهم من خطة أخرى إضافةً إلى الخطة القرآنية من أجل رقيهم القومي.

ولما كان من الوارد أن ينتاب البعض تفكير بأن الآخرين يكوّنون أحزابًا كبيرة لإنجاح خططهم الجديدة، فقد ينجحون ونبوء بالفشل، لذا فقد قال الله تعالى بعد ذلك ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.. أي ما دمتم عاملين بأحكام الإسلام، فإن الله سيسحق هؤلاء القوم بسبب ذنوبهم وإن كانوا أكثر منكم قوة إذ لم يتبعوا تعاليم الإسلام. فلا تنخدعوا بخططهم المحكمة في الظاهر، بل لو أمعنتم النظر لوجدتم أنهم إنما يريدون تقوية حزبهم وجماعتهم فقط، ولا يريدون منفعة الخَلْق كلهم أبدًا.

ثم يقول الله تعالى ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.. أي إذا كان هؤلاء يريدون حكم الجاهلية فذاك شأنهم، ولكن المؤمن الصادق يرضى بحكم الله تعالى، ولن يرضى بحكم سواه.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.. أي، أيها المؤمنون، إذا كان الله تعالى هو الذي أنـــزل هذا الكتاب فمن ذا الذي هو أحكَمُ خطّةً وأفضل تعليمًا منه تعالى. فإما أن تقولوا أنه ليس هناك إله لهذا الكون، وأن محمدًا ليس رسوله، وأن هذا الكتاب ليس من عنده تعالى؛ وإذا كنتم غير مستعدين لقبول هذه الأمور، بل تؤمنون حقًّا بأن القرآن كتاب الله تعالى وأن محمدًا رسول الله حقًّا، فكيف يمكن أن تصدقوا بأن الزعيمَين الروسيين لينين وستالين* مثلاً قادران على سن قانون جيد، ولكن الله تعالى ليس بقادر على ذلك، أو أن

* علمًا أن هذا التفسير قد تم تأليفه قبل حوالي نصف قرن من الزمان حين كانت الاشتراكية على أوجها. *(المترجم)*

الولايات المتحدة الأمريكية قادرة على سن قانون جيد، ولكن الله تعالى لا يستطيع ذلك. إن هذا الزعم يماثل قول شخص يزعم أن بإمكانه أن يشتري بقرش واحد سكرًا أكثر مما يشتريه بجنيه. بل الواقع أن هناك مجالاً للمقارنة بين القرش والجنيه، ولكن لا مقارنة بين الله تعالى وعباده. إن الله تعالى عالم الغيب وخبير بأحوال العباد، وعنده العلم الكامل بما هو خير لهم وبما هو ضار بهم؛ فمن المستحيل أن يكون قانونه ناقصًا، وتكون قوانين العباد منـــزهة عن النقائص والعيوب.

بيد أن الله تعالى قد صرح بقوله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أن هذا الأمر إنما يفهمه الذين يوقنون بكلام الله تعالى، ولن يستوعبه الذين يرفضون كلامه تعالى بمجرد سماعه.

ثم يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾.. أي أيها المؤمنون تَذكَّروا أن اليهود والنصارى سيكونون غالبين في العالم في الأيام التي ستحل بكم هذه الآفات، وسيقومون بنسج خطط جديدة للتصدي للإسلام، فلا تعدّوهم أصدقاء لكم أبدًا، ولا تظنّ أنهم يقدّمون هذه الخطط لصالحكم ورقيكم.

وبالفعل ترى أن كل نظرية يتم ترويجها وتطبيقها في العالم اليوم إما هي نظرية يهودية أو مسيحية. فإن لينين.. مؤسس الاشتراكية.. كان يهوديًّا، وستالين أيضًا كان يهوديًّا. وكذلك فرويد الذي أضرت فلسفته بالدنيا جدًّا كان يهوديًّا. وبعض هؤلاء الذين يقدمون نظرياتهم الفلسفية مسيحيون. قصارى القول إن جميع الفلسفات التي نراها اليوم في الغرب إمّا هي من صنع اليهود أو من صنع المسيحيين. ولذلك يقول الله تعالى محذرًا إيانا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾.. أي أن اليهود والنصارى في ذلك الزمن الموعود سيعرضون عليكم خططًا رائعة في الظاهر، وسيسعون لأن تتّبعوهم، ولكنا ننصحكم بألا تتخذوهم أصدقاء أبدًا. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.. إن خططهم ستجلب لهم بعض المنافع، ولكنها لن تنفعكم شيئًا بحال من الأحوال. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.. وتَذكّروا أن من آثر صداقتهم فلن يُعَدّ مسلمًا عند الله تعالى، بل سيُعدّ يهوديًّا أو نصرانيًّا. ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.. أي أن الذين يدخلون في

دين ثم يغدرون به فإنهم ظالمون عند الله تعالى، واعلموا أننا لا نترك الظالم أبدًا، بل نعاقبه حتمًا.

والواقع أن هذه الآيات من سورة المائدة تفسير لقول الله تعالى ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾، حيث بيّن الله تعالى فيها أن القرآن ما دام يحتوي على كافة الأحكام، وما دمنا قد ذكرنا فيه كل ما لا بد منه لرقيكم، فأي داع بعد ذلك لأن تتبعوا هؤلاء وتتركوا تعليم الإسلام والقرآن، إذا لا يريدون بخططهم إلا مصلحة أقوامهم. وبالفعل ترى أن هناك الكثير من النظريات الغربية التي تُرسَل إلى بلادنا لتُفرض علينا حينما تصبح بالية عديمة الجدوى. علينا أن نرى أيهما أكثر نفعًا لبلادنا: أهي البنادق أم النظريات الفلسفية. من البديهي أن النظرات الفلسفية الجيدة خير لبلادنا من البنادق. ولكن خبرتي تؤكد أنه كلما رفضت أوروبا فلسفة ما باعتبارها عقيمة غير صالحة للعمل أخذ الأساتذة في كليات بلادنا بعد عشرين سنة بتعليم نفس الفلسفة العقيمة زاعمين أنها نظرية جديدة قدّمتها أوروبا. والحق أن مثلهم كمثل ما فُعل بأحد البراهمة الهندوس. يقال أن برهمنًا زار أحدَ المهاراجات وطلب منه المعونة – والمفروض في الديانة الهندوسية ألا يُرَدّ البرهمن بدون عطاء وإلا نـــزل غضب الله تعالى – وكان المهاراجا شخصًا بخيلا ولم يرد أن يعطي البرهمن شيئًا، ولكنه كان مضطرًا بحسب ما يأمره دينه. فدعا وزيره وقال لـــه: أعطه البقرةَ التي هي مفقودة منذ السنة الماضية. وكان ابن المهاراجا واقفًا بجنبه وكان أشد بخلاً من أبيه، ففكر في نفسه أن هذا البرهمن يحترمه الناس، فلعله يعلن بين القوم عن البقرة المفقودة فيتم العثور عليها فيأخذها فعلاً. فقال لأبيه: يا أبت لم تؤتيه تلك البقرة؟ أَعْطه البقرة التي ماتت قبل سنتين!

هذا ما يفعل بنا أهل أوروبا، حيث يلقون إلينا كل ما أصبح باليًا رديئًا عديم الجدوى، ويقولون خذوا منا، إن شئتم، هذه البنادق العتيقة التي استُعملت قبل خمس عشرة سنة، وهذه الدبابات المصنوعة قبل عشرين سنة، أما البنادق الحديثة والدبابات الحديثة فإننا بحاجة إليها. وكذلك يبيعوننا المدمرات (Destroyer) والسفن الطوافة (CRUSIER) القديمة المصنوعة قبل عشرين سنة مثلاً ويقولون خذوها وعليكم

بتصليحها بأنفسكم. ولو طلبت اليوم من الأوروبيين القنبلة الذرية لن يعطوكم إياها أبدًا. ولكن عندما سيعم في المستقبل استخدام الطاقة الذرية في العالم وستستعملها كل دولة، سترون أن أمريكا ستعرض عليكم شراءها قائلة بأن عندها مثلاً ٢٥ قنبلة ذرية قديمة صُنعت في سنة كيت وكيت ويمكنكم شراؤها. إذًا، فما دام الغرب مترددًا في أن يبيع لنا سلعه المادية الحديثة، فكيف يظن أهل الرأي والفكر عندنا أنه سيعطينا بدون توقُّف الفلسفات والنظريات التي تبني الشعوب وتنهض بالبلاد وتحقق لها الغلبة والعظمةَ في العالم؟ الواقع أنهم عندما يملّون نظريةً ما ويرون أنها أصبحت عقيمة عديمة الجدوى يقولون لنا خذوها ورَوِّجوها عندكم.

وهذا ما يؤكده الله تعالى هنا ويقول للمؤمنين لم لا توقنون أنهم ليسوا لكم من الناصحين الأمناء؟ لم لا ترون أولاً أن القرآن دستور قد سنّه الله تعالى، أما قوانينهم فهي من صنع البشر، وهيهات أن يستوي قانون الله تعالى وقانون البشر. وثانيًا إن هؤلاء أعداء لكم، ومن المستحيل أن يروا تقدمكم وإحرازكم مكانة مرموقة في العالم. فمتى تريد أمريكا أو روسيا أن تتخلف ولا تتقدم وتسبقها الدول الأخرى؟ فمثلاً لو صارت بلادنا دولة صناعية كبرى فهل تستورد بعد ذلك المنتجات الأمريكية كما تفعل الآن؟ فمتى تريد أمريكا للدول الأخرى التقدم الذي يغنيها عن استيراد المنتجات الأمريكية؟ إنها ستتخذ حتمًا من التدابير ما يساعدها هي على الرقي ويخلّف الدول الأخرى. إن أمريكا لن تأخذنا إلى الدرجة الثانية من سُلّم الرقي إلا إذا وصلت هي إلى الدرجة الثالثة. وسنظن عندها أننا قد قطعنا شوطًا كبيرًا من التقدم، والواقع أنها تسمح لنا الوصول إلى الدرجة الثانية لأن تلك الدرجة لم تعد لها ذات جدوى، إذ قد صعدت هي إلى الدرجة الثالثة.

أما من الناحية الدينية فترى أن أوروبا تعرض علينا تعليم المسيحية الذي نـــزل قبل القرآن الكريم بستة قرون، ونُسخ بنـــزوله، وهكذا فإنهم يريدون أن يجرونا إلى الوراء كي لا نبقى صالحين لشيء. ولكن الغريب أن المسلم إنما ينظر إلى ملبسهم وطعامهم وفيلاتهم وطائراتهم، دون أن يدري أنهم يريدون أن يستعبدوا عقله.

قصارى القول إن الله تعالى قد أشار بقوله ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ إلى اثنتين من المزايا العظيمة للقرآن الكريم أولاهما أن جميع أحكامه مبنية على الحكمة البالغة، وثانيتهما أنه أكمل وآخر هدي للدنيا من حيث قوانينه. وحيث إن الله تعالى قد راعى في القرآن كافة الطبائع البشرية، وحيث إن أحكامه مبنية على الحكمة، وحيث إن شرعه مكتمل من جميع النواحي، فماذا تحتاج إليه الدنيا بعد ذلك لنجاتها؟ إنما يكمن نجاحها ونجاتها في أن تصدق القرآن وتعمل به مدركة بأن ما ورد في هذا الكتاب هو الحق والصدق.

بيد أن الله تعالى يبين في قوله ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أنه برغم أن هذا الشرع صالح للعمل ومكتمل من كل النواحي إلا أن خصوم الأنبياء لا يسعون للتقدم في مجال الخير بل يظلون نائمين يغطّون في الغفلة إلى أن يأتيهم العذاب ويُدمَّرون. وهكذا أوضح الله تعالى أن هؤلاء لا يقبلون الحق لسببين: أولهما أنهم غافلون ولا يبالون بكلام الله تعالى، وثانيهما أن سوء أعمالهم يحول دون قبولهم الحق. ولو أنهم تركوا الغفلة وعملوا الصالحات بدلاً من السيئات لتيسر لهم الهدى.

واعلم أن هذه الآية ترد – ضمنيًّا – على الشيعة أيضًا. يقول الشيعة إن الخلافة كانت حقًّا لعلي ﷺ، وكان من المفروض أن يكون هو الخليفة، ولكن أبا بكر (ﷺ) غصبه حقه هذا. فالله تعالى يرد عليهم بقوله ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ مبينًا أننا إذا قررنا أن نؤتي أحدًا جائزة فلا يمكن أن يحرمه أحد من حقه هذا لأن ما يقوله القرآن لا بد أن يتحقق. إذا كان القرآن قد قرر بأن الخلافة أو الإمامة حقٌّ لعلي فكان من المحال أن ينتزع منه هذا الإنعام أي قوة في العالم. ونظرًا إلى هذا المعنى سيعني قوله تعالى ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أن الذين يقولون من جهة أن القرآن قد أعطى هذا الحق لعلي ومن جهة أخرى يزعمون أن الناس قد غصبوه حقه هذا فإنهم يجهلون معارف القرآن الكريم، وبما أن ما يعملون به لا يتوافق مع القرآن فلا يمكن أن يتولد في قلوبهم ذلك الإيمان الذي يتولد في الذين يعملون بالقرآن الكريم حقًّا.